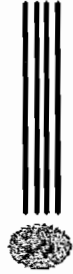


أثر إرادة الدنيا في أعمال العبد



د/ أحمد بن صالح الزهراني (*)

يتناول البحث أثر إرادة الدنيا في أعمال العبد التعبدية سواء منها المحضة أو المشوبة، وبيناً فيه أن شرط قبول العمل وصحته والإثابة عليه هما الإخلاص والمتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم .

وأن ترتب الثواب الأخروي من عدمه موقوف على شرط آخر هو الاحتساب، أي طلب الأجر الأخروي بالعمل .

وبيناً أن هناك فرقاً في إرادة الدنيا بالعمل بين طلبها من الله تعالى وبين طلبها من المخلوق .

وتبين لنا كذلك الفرق بين الرياء وهو العمل لطلب ثناء المخلوق وبين إرادة الدنيا كذلك وأن الرياء نوع مستقل .

وتبين من خلال النصوص أن إرادة الدنيا بالعمل إن كانت من الله تعالى كسعة الرزق وحفظ المال والولد لا يجوز أن تكون في الفرائض والواجبات التي لا يجوز أن يُبتغى بها إلا ثواب الآخرة .

(*) الأستاذ المساعد بقسم الدراسات الإسلامية (عقيدة) - كلية الآداب والعلوم الإنسانية -
جامعة الملك عبد العزيز

وأما في النوافل فإنه جائز شريطة أن لا تكون ديدن الشخص في كل نوافله وإلا شملته نصوص العمل للدنيا .

كذلك تبين أن الامتناع أحياناً عن المعصية خوف عذاب الله العاجل لا بأس به والعبد مأجور عليه لكنه ليس الأصل في المؤمن، بل المؤمن الحق هو من يخشى عذاب الآخرة .

المقدمة :

فإن الله قد خلق الخلق لغاية عظيمة، وواجب جليل، ألا وهو عبادته وحده جل شأنه: (وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات: ٥٦]، هذه حقيقة متقررة اتفق عليها المؤمنون، ومن أجل تحقيق هذه الغاية كان كل ماكان من خلق السماوات والأرض وما سخر الله فيها من المخلوقات والنعم، وكذلك بعث الله الأنبياء والرسل وشرع الشرائع وسن السنن الكونية والشرعية، كل ذلك في الحقيقة ما وُجد إلا لخدمة الهدف النبيل وهو عبادة الله جل شأنه وحده دون ما سواه .

ولا يحتاج الأمر إلى كثير تأمل ليعرف المسلم أن الأعمال التي يقوم بها العبد في حياته لا تخرج عن قسمين اثنين: عبادات، وعادات .

أما القسم الأول وهو العبادات فهي الأعمال التي شرعها الله للعباد ليعبدوه ويتقربوا إليه بها، أي ليحققوا الغاية التي خلقهم من أجلها، وعلى هذه الأعمال رتب الثواب والعقاب .

وهذه الأعمال في الحقيقة إما فعل وأمر مطلوب امتثاله، أو نهي وفعل مطلوب اجتنابه، وفي كلا القسمين إما أن يكون ذلك على سبيل العزم والحثم أو على سبيل الأفضلية والندب .

وهذه الأعمال التي هي عبادات تُعتبر غاية بالنسبة لحياتنا الدنيا .

وأما القسم الثاني: وهي العادات، فهي الأعمال التي يزاولها العبد في حياته مما هو من خصائص الحياة البشرية التي خلقها الله فيه وأودعها فطرته، كالأكل والشرب والنكاح والنوم والبيع والشراء ونحو ذلك مما لا يُشترط أن يطلب بفعله أجر ولا يُخشى من تركه عقوبة من حيث أصله، فليس هو عبادة في نفسه .

وهذه الأعمال تُعتبر وسائل معينة على تحقيق الغاية التي خلقنا من أجلها وهي عبادة الله تعالى، ولا يتعلّق بها ثواب أو عقاب لذاتها .

والمتميّز عند أهل السنّة والجماعة بل هو دين المسلمين قاطبة وهو حقيقة ما جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلّم أنّ الواجب على العباد توحيد الله وإفراده بالعبادة، وأنّ صرف شيء من العبادة لغير الله تعالى أيّاً كان شرك أكبر مخرج من الملة، وعلى هذا دلّت نصوص الكتاب والسنّة ومنهج أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلّم وتابعيهم بإحسان.

كما دلّت النصوص أنّ على العبد أن يقصد بعمله الدار الآخرة، وهذا جنس آخر غير الإخلاص، ألا وهو احتساب الأجر عند الله، بمعنى طلب الأجر من الله في الآخرة .

لكنّ العبد قد يعمل العمل أحياناً يريد من الله غرضاً دنيوياً، فما الحكم في ذلك ؟ وهل هو مأجور أم موزور ؟

لأنّ الله تعالى يقول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا

وَبَطِّلْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[هود: ١٥-١٦]، مع أن أحداً لا يخالف أن هناك فرقاً بين طلب الدنيا من المخلوق وطلب الدنيا من الخالق جلّ وعلا .

ومسألة أخرى تشبه تلك بل هي منها: من امتنع عن المعصية خوفاً من العقوبة الدنيوية التي تترتب عليها من الله هل يُؤجر أم لا ؟

وهذا البحث الصغير هو استعراض لبعض النصوص في هذه المسألة لمعرفة الحكم الشرعي وأقوال العلماء فيها، حتى لا تكون أعمال الواحد منّا ﴿كَرْبَ بَقِيْعَةٍ يَحْسَبُ الظُّلُمَاتُ مَاءً﴾ [النور: ٣٩].

وقد جعلته في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة :

التمهيد : بيّنت فيه معنى الإخلاص والاحتساب

الفصل الأول : ما قصد به وجه الله وابتغى به الآخرة

الفصل الثاني : ما كان لله خالصاً وابتغى فيه الأجر العاجل من الله

تعالى

الفصل الثالث: العمل بقصد الحصول على الدنيا من المخلوق

سائلاً ربي أن ينفع هذا البحث كاتبه وقارئه ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله صحبه وسلم .

تمهيد : الإخلاص والاحتساب

«التوحيد ألطف شيء وأنزهه وأصفاه، فأدنى شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه، فهو كأبيض ثوب يكون، يؤثر فيه أدنى أثر كالمرآة الصافية جداً، أدنى شيء يؤثر فيها، ولهذا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية، فإن بادر صاحبه وقطع ذلك الأثر بضده وإلا استحکم وصار طبعاً يتعسر عليه قلعه»^(١).

(١) الفوائد لابن القيم (ص ٣٣٩).

و لهذا فإنّ العلماء يفرّدون الكلام عن الإخلاص ويضفون عليه مزيداً من الاهتمام مع أنّه من جملة التّوحيد، إلا أنّ الإخلاص يراد منه تصفية القلوب والإرادات تصفيةً حقيقةً كاملة عن كلّ مامن شأنه أن يخدش أو يشوش صفاء التّوجّه إلى الله تعالى، حتّى يصبح توحيد المخلصين كماء كثيرٍ تنغمر فيه النّجاسة فلا تؤثر فيه ولا في طهوريته.

ومعاني الإخلاص لغةً تدور حول التّقية والتّمييز والنّجاة^(١)، ولهذا كانت تعريفات السلف للإخلاص تدور حول نفس المعنى، فمن قائل: «هو إفراّد الحق سبحانه في الطاعة»، ومن قائل: «هو تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين»، ومن قائل: «هو استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن»، وقيل: «هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق»، والقصد واحد كما قال ابن القيم رحمه الله^(٢).

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله^(٣) في قوله تعالى: ﴿يَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

عَمَلًا﴾ [المّلك: ٢] قال «أخلصه وأصوبه، قال: والخالص إذا كان لله عز وجل والصّواب إذا كان على السّنة»^(٤).

وعن ابن المبارك^(٥) رحمه الله قال: «ربّ عمل صغير تعظّمه النّية وربّ عمل كبير تصغّره النّية»^(٦).

(١) انظر تهذيب اللغة (١٣٧/٧) والقاموس المحيط للفيروز آبادي (٤٤٢/٢).

(٢) انظر مدارج السالكين (٩٥/٢).

(٣) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر الإمام القدوة الثّبت شيخ الإسلام أبو علي التّيمي الخراساني توفي سنة (١٨٧) هـ السّير (٤٢١/٨).

(٤) جامع العلوم والحكم (٧٢/١).

(٥) عبدالله بن المبارك بن واضح الإمام شيخ الإسلام، وأمير الأتقياء في وقته أبو عبدالرحمن الحنظلي مولا هم التركي ثم المروزي الحافظ الغازي أحد الأعلام، قيل: ما لقي ابن المبارك رجلاً إلا وابن المبارك أفضل منه، قال العباس بن مصعب: جمع ابن المبارك الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسّخاء والتجارة والمحبة عند الفرق، وقيل: ابن المبارك في المحتشّين مثل أمير المؤمنين في الناس، توفي رحمه الله سنة (١٨١) هـ، السّير (٣٧٨/٨).

(٦) ذكره ابن أبي الدنيا في الإخلاص (ح ٧٠).

والإخلاص من الأعمال القلبية التي هي من لوازم التوحيد بل هي من شروط تحقيق الشهادتين، وهو مطلوب في جميع الأعمال الصغيرة والكبيرة لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل أمرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١).

وهذا الحديث أصل جامع لكل أنواع الإرادات والمقاصد بالأعمال، وقد تكلم العلماء في شرحه كثيراً عن المراد بالحرص والأعمال، وخلاصة ما ذكر أن المراد بذلك: صحة الأعمال أوفسادها، وقبولها أو ردها، والإثابة عليها أو عدمها، كل ذلك مُعلق على نية العمل وقصده بالعمل^(٢).

وعليه فإن حصول الأجر والثواب من الله تعالى على العمل متوقف على نية العامل بعمله، فإذا حقق الإخلاص في عمله تحقق له الأجر .

فالحديث يدلّ دلالة واضحة على هذا الأصل: أن الإخلاص شرط لصحة العمل وأن العمل الصحيح هو الذي يقبله الله ويثيب عليه .

والإخلاص مما تقدّم يُراد به تصفية العمل عن إرادة غير الله تعالى، أي خلوص نية العامل من قصد غير الله تعالى بالعمل، ولم يذكر أفراد الغير في الحديث فقال: «إلى ما هاجر إليه» لأن الأسباب التي يهاجر من أجلها العبد، أو بمعنى أشمل الأسباب التي يعمل من أجلها العبد العمل الصالح كثيرة لا حصر لها فلذلك أبهمها عليه الصلاة والسلام وذكرها بلفظ جامع .

وأما من أراد بعمله وجه الله وأخلص فيه فقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أنه يكفي أنه عمله لله: «فهجرته إلى الله ورسوله» فحسابه على الله وأجره منه سبحانه ونعم الأجر أجر من الله .

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥)، (ح ١٩٠٧) عن عمر رضي الله عنه .

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٦٤٤) .

لكنّ العمل الخالص لله وحده لابدّ من احتساب الأجر فيه حتّى يترتب عليه الأجر في الآخرة .

فإنّ العمل الصالح الأصل فيه أن يُراد به طلب ما عند الله من النعيم واتقاء ما عنده من العذاب المقيم، وذلك هو الجنة والنار، فإذا أراد العبد لعمله أن يترتب عليه الأجر الأخروي فيجب عليه زيادة على الإخلاص أن يحتسبه على الله وينوي بعمله الأجر الأخروي، يدلّ على ذلك عموم قوله صلّى الله عليه وسلّم: «ولكلّ امرئ ما نوى»، فمن أراد بعمله ثواب الدنيا أعطاه الله منها ومن أراد ثواب الآخرة أعطاه الله ثواب الدنيا والآخرة .

كما يدلّ عليه اشتراط النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم الاحتساب في ترتّب الأجر على كثير من الأعمال، كقيام ليلة القدر والصبر على فقد الأبناء والإنفاق من المال والجهاد ويأتي بيانه في مواضعها .

وبنظرة فاحصة نستطيع تقسيم الأعمال من حيث نيّة العامل فيها إلى الأقسام التالية:

الأول: ما كان خالصاً لله وابتُغي به الدار الآخرة .

الثاني: ما كان لله خالصاً وابتُغي فيه الأجر العاجل من الله تعالى .

الثاني: إرادة الإنسان بعمله الدّنيا من المخلوق .

الثالث: العمل لقصد مدح الخلق وثناءهم والسمعة وهو الرّياء .

وهذا ما سنستعرضه في الفصول الآتية وبالله الاستعانة .

الفصل الأول : ما قُصد به وجه الله وابتغى به الآخرة

وهذا القسم هو أرفعها وأجلّها، وهو الغاية التي يسعى إليها الموحّدون، وهو الذي أحال أفئدة العارفين جمرًا، أسهر ليلهم، وأسأل مدامعهم، ذلك أنّه عزيز في القلوب، قليل في الصّالحين، عسير على خاصّة النّاس قبل عامتهم إلّا من أراد الله به رحمة من عنده، وأنّى لمن تقلّب في المعاصي، وتمرّغ في أحوال الفانية، وامتزج بروحه حبّها كما يمتزج الماء باللّبن، أنّى له أن تصفو له نيّته ويسلم له مراده ومقصده، فإذا أخلصه الله لم يسلم من شرّه نفسه لغرض من الدّنيا قليل، ومتاع منها زائل .

وهذا القسم هو الذي رفع أبا بكر وأصحابه على العالمين، لأنّهم لم يكونوا طلاب دنيا، تاشه لقد حازها الله لهم بحذاقيرها فأهلكوها في سبيله، وأهانوها ابتغاء وجهه، وما عرفت الدّنيا طعم الدّلّ والمهانة والحقارة كما عرفتّها على يد أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وباقي النّلة التي ربّاه سيّد الموحّدين وإمامهم ﷺ الذي كان قوله وعمله أن «ما لي والدّنيا»^(١) .

وهذا القسم توفّر فيه شرطان: أولهما: الإخلاص لله تعالى والآخرة: هو الاحتساب، أي: ابتغاء أجر الآخرة دون متاع الدّنيا، بل كانوا يخافون من ورود النّعم عليهم أن تكون طيّباتهم عجلّت لهم .

وأصحابه يصفو لهم أجرهم في الآخرة، وما أعدّه الله لهم من الكرامة والنّعيم المقيم في جنّات عرضها السّماوات والأرض: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] .

(١) ورد في عدة مواقف، أخرجه أحمد (ح ٢٧٤٤) والبخاري (ح ٢٦١٣) والنسائي في الكبرى (ح ٨٩٥٠).

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ

سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، قال ابن جرير^(١) رحمه الله: «يقول تعالى: من أراد الآخرة وإياها طلب ولها عمل عملها الذي هو طاعة الله وما يرضيه عنه وهو مؤمن مصدق بثواب الله وعظيم جزائه غير مكذب به فمن فعل ذلك كان سعيه مشكوراً وشكر الله إليهم حسن جزائه لهم على أعمالهم الصالحة وتجاوزه عن سيئاتهم»^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُنَوِّتْهُ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، قال ابن جرير: «ومن يرد منكم بعمله جزاءً منه ثواب الآخرة يعني ما عند الله من كرامته التي أعدها الله للعاملين له في الآخرة نعطه منها أي من الدار الآخرة»^(٣).

وقال عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠]، قال ابن جرير: «يقول تعالى نذكره: من كان يريد بعمله الآخرة نزد له في عمله الحسن، فنجعل له بالواحدة عشرة إلى ما شاء ربنا من الزيادة»^(٤).

وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَتَيْتُم مِّن رَّبٍّ لَّيِّئُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيئُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا أَتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، أي ذلك الذي يقبله الله وينيب عليه ويضاعفه عشرة أضعاف»^(٥).

(١) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، الإمام العلم المجتهد، عالم العصر أبو جعفر الطبري، صاحب للتصانيف البديعة، كان من أفراد الدهر علماً، وثكاً، وكثرة تصانيف. قل أن تری العيون مثله، وقال الخطيب: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب: كان أحد أئمة العلماء، يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، توفي سنة (٢١٠) هـ سيرة أعلام النبلاء (٤/ ٢١٧).

(٢) جامع البيان (٥٥/ ٨) يتصرف.

(٣) جامع البيان (٤٦٠/ ٣) يتصرف يسير.

(٤) جامع البيان (١٤٠/ ١١).

(٥) تفسير القرطبي (٢٧/ ١٤).

وهذا المعنى ثابت مشهور من دين الإسلام لا يُنكر ولا يُجادل فيه، فالعمل الخالص لله المقصود به ما عند الله من الثواب والنعيم هو أرفع الأعمال وأحبها إلى الله وأكثر ما يعطي الله عليه .

ونلاحظ هنا أن الحسبة شيء آخر غير الإخلاص، فقد يخلص العبد في عمله لله لكن بلا احتساب، كما أنه قد يحتسبه لكن دون إخلاص .

قال الإمام البخاري^(١) رحمه الله: «باب ما جاء: أن الأعمال بالنية والحسبة، ولكل امرئ ما نوى، فدخل فيه الإيمان والوضوء والصلاة والزكاة والحج والصوم والأحكام، وقال تعالى: (قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلِيهِ) [الإسراء: ٨٤] على نيته، ونفقة الرجل على أهله — يحتسبها — صدقة، وقال: لكن جهاد ونية».

قال الحافظ ابن حجر^(٢): أي باب بيان ماورد دالاً على أن الأعمال الشرعية معتبرة بالنية والحسبة، والمراد بالحسبة طلب الثواب، ولم يأت بحديث لفظه الأعمال بالنية والحسبة وإنما استدلل بحديث عمر على أن الأعمال بالنية، وبحديث أبي مسعود على أن الأعمال بالحسبة، وقوله: «لكل امرئ ما نوى» هو بعض حديث الأعمال بالنية، وإنما أدخل قوله: والحسبة بين الجملتين للإشارة إلى أن الثانية تفيد ما لا تفيد الثانية»^(٣).

وأما السنة فقد جاء فيها كثير من النصوص التي تدل على هذا القسم وهو العمل لله ابتغاء ما عنده من الأجر، بمعنى التأكيد على الاحتساب مع الإخلاص، أختار منها التالي:

(١) الإمام الحافظ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن برزبه البخاري صاحب الصحيح، توفي سنة (٢٥٦) هـ السير (٣٩١/١٢).

(٢) الشيخ الأستاذ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي الكتاني الحنبلاني المصري القاهري الشافعي أمير المؤمنين في الحديث، صاحب فتح الباري شرح صحيح البخاري وغيره، أشهر من أن يعرف، توفي سنة (٨٥٢) هـ، انظر البدر الطالع للشوكاني (ص ١٠٢) ومعجم المؤلفين (٢٠/٢).

(٣) انظر فتح الباري (١٦٤/١).

١. حديث عمر بن الخطاب المشهور: «إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله»^(١) ودلالته على ذلك من سبيل العموم .

٢. ومنه حديث أبي أمامة رضي الله قال: جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلّم فقال: أرأيت رجلاً غزاً يلتمس الأجر والذكر، ماله ؟ قال: لا شيء له، ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «إنّ الله لا يقبل من العمل إلّا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه»^(٢) .

فهذا الرّجل سأل عمّن يغزو يريد الأجر من الله، فهذا الاحتساب، وأمّا الإخلاص فلم يأت به لأنّه يطلب مع الأجر الذكر أي الثناء والمدح من الناس وهذا ينافي الإخلاص، فنبّه النبيّ صلى الله عليه وسلّم أنّ الأجر الأخروي لا يتحقّق لصاحبه إلّا بالإخلاص، وابتغاء ما عند الله تعالى من الأجر الجزيل والثواب العظيم .

٣. حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً: «ما من النّاس من مسلم يتوفّى له ثلاث لم يبلغوا الحنث إلّا أدخله الله الجنّة بفضل رحمته إيّاهم»^(٣) وقيد في رواية أخرى «من احتسب ثلاثة من صلبه»^(٤)، قال الحافظ: «وقد عُرف من القواعد الشرعيّة أنّ الثّواب لا يترتّب إلّا على النّيّة فلا بدّ من قيد الاحتساب، والأحاديث المطلقة محمولة على المقيدة»^(٥)

(١) تقدّم قريباً.

(٢) أخرجه الترمذي في الكبرى (٤٣٤٨: ٤٠) وحسنه الشيخ الألباني في الصحيح (ح ٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (ح ١٢٤٨).

(٤) أخرجه الترمذي في الكبرى (ح ١٩٩٩).

(٥) الفتاوى (١٩/٣).

٤. حديث أبي بن كعب أن رجلاً من الأنصار كان بيته أقصى بيت في المدينة فكان لا تخطئه الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له: يا فلان لو أنك اشتريت حماراً يقيك من الرمضاء ويقيك من هوام الأرض، قال: والله ما أحب أن يبيتي مطنباً ببيت محمد صلى الله عليه وسلم، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فدعاه فقال له مثل ذلك، وذكر أنه يرجو في أثره الأجر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «لك ما احتسبت»^(١).

٥. حديث أبي هريرة مرفوعاً: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه»^(٢).

٦. حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه»^(٣)، قال الحافظ: «إيماناً أي تصديقاً بوعده الله بالثواب عليه، واحتساباً أي طلباً للأجر»^(٤).

٧. ومنه حديث أنس ابن مالك أن بني سلمة أرادوا أن يتحولوا عن منازلهم فينزلوا قريباً من النبي صلى الله عليه وسلم قال: فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُعروا المدينة فقال: «ألا تحتسبون آثاركم» قال مجاهد^(٥) خطاهم: «آثارهم»^(٦).

٨. وعن أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وفي بُضْعٍ أحدكم صدقة»، قلنا: يارسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟

(١) أخرجه مسلم (ح ٦٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (ح ١٩٠١) ومسلم (ح ٧٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (ح ٣٧) ومسلم (ح ٧٥٩).

(٤) الفتوح (٢٥١ / ٤).

(٥) مجاهد بن جبر أبو الحاج المخزومي مولاهم المكي، الإمام شيخ القراء والمفسرين روى عن ابن عباس وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقه، وعن غيره من الصحابة، قال الأعمش: كان مجاهد كئيباً فإذا نطق خرج من فيه للؤلؤ، توفي رحمه الله سنة (١٠٤هـ) على الأرجح، السير (٤٤٩/٤).

(٦) أخرجه البخاري (ح ٦٥٥).

قال: «أرأيتم لو وضعها في غير حلّ أكان عليه وزر؟» قالوا: بلى، قال: «فكذلك لو وضعها في حلّ له أجر»^(١).

والنصوص من السنّة كثيرة بمعنى ما ذكرنا، والنكتة في هذا أنّ الأجر إذا أُطلق في النصوص فإنّما يُراد به الأجر الأخروي، وأنّ الحسبة شيء زائد على مجرد الإخلاص، وقد رُوِيَ فيه حديث فيه ضعف: «لأجر لمن لا حسبة له»^(٢)، وكلام البخاري صريح في ذلك .

(١) أصله عند مسلم (ح ١٠٠٦).
(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ح ١٥٢) والبيهقي في السنن (ح ١٧٩) وقوّاه الشيخ الألباني في الصحيحة (ح ٢٤١٥).

الفصل الثاني : ما كان لله خالصاً وابتُغي فيه الأجر العاجل من الله تعالى

والمقصود بها أن يعمل العمل خالصاً لله ويريد الأجر من الله تعالى فقط، لكنه يريد الأجر معجلاً في الدنيا إما كله أو بعضه ، بمعنى أن نية الدنيا والثواب العاجل قد تنفرد بالعمل ، وقد تكون مخالطة ومشاركة لطلب الثواب الآجل .

والأمر هنا يحتاج إلى تفصيل، فإن النصوص غالباً تذكر حكم إرادة الأجر الأخروي بالعمل خالصاً، وحكم إرادة الدنيا خالصاً، وأمّا الخلط بينهما فقليل .

ونحن نستعرض بعض النصوص في هذا الموضوع:

١ . قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ

جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكّره: من كان طلبه الدنيا العاجلة ولها يعمل ويسعى، وإياها يبتغي، لا يوقن بمعاد ولا يرجو ثواباً ولا عقاباً من ربه على عمله، يعجل الله له في الدنيا ما يشاء من بسط الدنيا عليه أو تقتيرها لمن أراد الله أن يفعل ذلك به، أو إهلاكه بما يشاء من عقوباته ثم أصلناه عند مقدمه علينا في الآخرة جهنم (مذمومًا) على قلة شكره إيانا وسوء صنيعه فيما سلف من أيادينا عنده في الدنيا (مدحورًا) مبعداً في النار» ثم ساق بسنده عن قتادة^(١) رحمه الله قال: «من كانت الدنيا همه وسدمه طلبته ونيته عجل

(١) أبو الخطاب قتادة بن دُعامة السدوسي البصري الضريّر الأكمه، كان من أوعية العلم، وممن يضرب به المثل في قوة الحفظ، روى عن عبد الله بن سرجس وأنس بن مالك وسعيد بن المسيب وعامر الشعبي وخلق كثير قال قتادة: ما قلت لمحدث قط أعد علي، وما سمعت أذناي شيئا قط إلا وعاه قلبي. توفي سنة (١١٧) هـ . السير (٢٦٩/٥).

الله له فيها ما يشاء ثم اضطره إلى جهنم»^(١)، ولعلَّ قصد الدنيا بالعمل مشعر بضعف اليقين بما عند الله، ولذلك جاء فيه الوعيد .

وقال القرطبي^(٢) رحمه الله في تفسير الآية: «وهذه صفة المنافقين الفاسقين والمرائين المداحين يلبسون الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها، فلا يُقبل ذلك العمل منهم في الآخرة ولا يُعطون في الدنيا إلا ما قُسم لهم»^(٣).

وقال ابن الجوزي^(٤): «يعني من كان يريد بعمله الدنيا ﴿عَمَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ من عرض الدنيا ... وفي هذا ذمٌّ لمن أراد بعمله الدنيا وبيان أنه لا ينال مع ما يقصده منها إلا ما قُدِّر له ثم يدخل النار في الآخرة»^(٥).

٢ . قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾^(١٥) أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وإياها وزينتها يطلب به نواف إليهم أجور أعمالهم فيها وثوابها وهم في الدنيا

(١) تفسير الطبري (٨ / ٥٥).

(٢) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المفسر، إمام متقن متبحر في العلم له تصنيف مفيدة تل على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله، له كتاب التفسير سماه الجامع لأحكام القرآن، وله كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة وغيرها، توفي سنة (٦٧١) هـ معجم المؤلفين (٨ / ٢٣٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠ / ١٥٤).

(٤) عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيدالله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر القرشي، التيمي، البكري، البغدادي، الحنبلي، المعروف بابن الجوزي، محدث، حافظ، مفسر، فقيه، واعظ، أديب، مؤرخ، توفي سنة (٥٩٧) هـ. معجم المؤلفين (٥ / ١٥٧).

(٥) زاد المسير (٥ / ٢٠).

لا ينقصون أجرها ولكنهم يوفونه فيها» ثم ساق بإسناده عن ابن عباس قوله: «مَنْ عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاةً أو تهجداً بالليل لا يعملهُ إلا لالتماس الدنيا يقول الله: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة وهو في الآخرة من الخاسرين»، ومثله عن سعيد بن جبير^(١)، ويفهم من النفي والاستثناء حصر الهمة والنية في ثواب الدنيا .

وروى عن مجاهد قوله: «أي مِمَّن لا يُقبل منه يُعجل له في الدنيا» .

وقال الضحاك^(٢): «أي من أهل الشرك يصل رحماً يعطي سائلاً يرحم مضطراً، في نحو هذا من أعمال البر يعجل الله له ثواب عمله في الدنيا يُوسّع عليه في المعيشة والرزق ويقرّ عينه فيما خوّله ويدفع عنه مكاره الدنيا وليس له في الآخرة نصيب» .

وروى عن أنس رضي الله عنه قال: «هي في اليهود» .

وروى أيضاً عن مجاهد قال: «هم أهل الرياء»،^(٣) وثواب المرائي حصول غرضه الذي عمل له وهو الثناء والمدح من الناس .

وقال القرطبي رحمه الله: «اختلف العلماء في هذه الآية فقيل: إنها نزلت في الكفار، قاله الضحاك واختاره النحاس بدليل الآية التي بعدها، وقيل: المراد بها المؤمنون أي من أراد بعمله ثواب الدنيا عجل له الثواب ولم يُنقص شيئاً في الدنيا وله في الآخرة العذاب لأنه جرد قصده إلى الدنيا فالعبد إنما يُعطى على وجه قصده وبحكم ضميره، وقيل: هو لأهل الرياء، وقيل:

(١) سعيد بن جبير بن هشام، الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد، أبو محمد، ويقال: أبو عبد الله الأسدي الوالبي، مولاهم الكوفي، أحد الأعلام، كان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه، يقول: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟ يعني سعيد بن جبير، وعن عمرو بن ميمون، عن أبيه، قال: لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه، توفي شهيداً قتله الحجاج بن يوسف سنة (٩٥هـ) السير (٣٢١/٤).
(٢) الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو محمد المفسر، كان من أوعية العلم كان معلماً كبيراً، وحديثه ليس بالقوي، انظر السير توفي سنة (١٠٢) هـ وقيل غير ذلك (٥٩٨/٤).
(٣) انظر ما تقدم في تفسير الطبري (١٤/٧) .

الآية عامّة في كلّ من ينوي بعمله غير الله تعالى كان معه أصل إيمان أو لم يكن، قاله مجاهد وميمون بن مهران^(١).

وقد تكلم ابن القيم^(٢) في تفسير هاتين الآيتين فذكر أقوال الناس فيها ثم قال رحمه الله: «واختار الفراء: أنّ من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يُخس .

وهذا القول أرجح، ومعنى الآية على هذا: أنّ من أراد بعمله الحياة الدنيا وزينتها، وهذا لا يكون مؤمناً، فإنّ العاصي والفاسق مهما بالغوا في المعصية فإنّ إيمانها يحملها على إرادة وجه الله .

فإن قيل: الآية الثانية — آية هود — توجب خلود المؤمن المريد بعمله الدنيا .

والآية بحمد الله لا إشكال فيها، والله سبحانه ذكر جزاء من أراد بعمله الدنيا وزينتها وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبب ما ينجو به وبطل لم يبق معه ما ينجيه، فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها بل أراد الله به والدّار الآخرة لم يدخل هذا الإيمان في العمل الذي حبط وبطل، وأنجاه إيمانه من الخلود في النار، وإن دخلها بحبوط عمله الذي به النجاة المطلقة .

والإيمان إيمانان: إيمان يمنع دخول النار وإيمان يمنع الخلود في النار، فإن كان مع العبد شيء من هذا الثاني وإلا كان من أهل الخلود^(٣).

(١) تفسير القرطبي (١٠/٩).

(٢) الإمام المحقق الحافظ الأصولي الفقيه شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي المشهور بابن قيم الجوزية، صنف كثيراً وأجاد ومن أشهر مصنفاته زاد المعاد والصواعق المرسلة ومدارج السالكين وغيرها، لازم شيخ الإسلام رحمه الله حتى مات، توفي سنة (٧٥١هـ)، نيل طبقات الحنابلة (٤٤٧/٢).

(٣) عدة الصّابرين وخيرة الشّاكرين ص ٢٠٤ - ٢٠٨. باختصار .

ويُلاحظ في كلام ابن القيم إجمال الحكم على الرِّياء وإرادة الدُّنيا بحكم واحد سواء كان طلب الدُّنيا من الله أو من غيره وهذا مشكل لأنّه معارض لبعض النصوص كما سيأتي .

وهذا التفريق يُفهم من كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب^(١) رحمه الله وإن كان لم يصرّح هل الجميع له حكم واحد أم لا، قال رحمه الله: «ذُكر عن السلف فيها أنواع ممّا يفعله النَّاس اليوم ولا يعرفون معناه، فمن ذلك العمل الصَّالح الذي يفعله كثير من النَّاس ابتغاء وجه الله من صلاة وصدقة وصلة وإحسان وترك ظلم ونحو ذلك، ممّا يفعله الإنسان خالصاً لله، لكن لا يريد به ثواب الآخرة، إنّما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتتميمته أو حفظ أهله وعياله ولا همّ له في طلب الجنّة والهرب من النَّار فهذا قد يُعطى ثواب عمله في الدُّنيا وليس له في الآخرة نصيب.

والنّوع الثّاني: وهو أكبر من الأوّل وأخوف أن يعمل أعمالاً صالحة ونيتّه رياء النَّاس .

والنّوع الثّالث: أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً مثل أن يحجّ لمال يأخذه أو يجاهد لأجل المغمم أو يواظب على الصّلاة لأجل وظيفة المسجد .

النّوع الرّابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصاً في ذلك لكنّه على عمل يكفره كفرأ يخرجّه عن الإسلام مثل اليهود والنّصارى، إذا أطاعوا الله طاعة

(١) محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي التجدي صاحب الدّعوة الإصلاحية ومجدّد الملة في القرن الثّاني عشر، الإمام العلامة الشهير والدّاعية الإسلامي الكبير، ظهر في أثناء القرن الثّاني عشر بنجد فدعا إلى توحيد الله بالعمل والعبادة، وإفراده بالقصد والإرادة فجدد ما اندرس من أصول الملة وقواعد الدين ودعا إلى مذهب السلف الصّالح والأئمة السابقين وما كانوا عليه في باب معرفة الله وصفاته، توفي سنة (١٢٠٦هـ)، انظر ترجمة وافية له في كتاب مشاهير علماء نجد للشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ.

خالصة يريدون بها ثواب الله»^(١)، فواضح من كلام الشيخ تفريقه بين الرِّياء وبين طلب الدنيا: وفي هذه الأخيرة فرّق بين من طلبها من الله وبين من طلبها من المخلوق وهو الفقه بعينه .

ونتوقّف هنا لنشير إلى نقاط تساعدنا على تمييز الصّحيح من الأقوال:

الأولى: أنّ هذه الآيات وما شابهها يُراد بها إرادة الإنسان بعمله الصّالح طلب الدنيا من الله، بمعنى أنّ العبد همّه بكلّ عمله الصّالح طلب الدنيا من الله من زيادة رزق وحفظ مال وولد وعافية ونحو ذلك، وهذا مذموم، ويدخل فيه من باب أولى طلب الدنيا من المخلوق فهذا الذي قد يصل إلى الكفر يدلّ عليه ما جاء في تفسير الآيات ويأتي سرد الآيات التي تؤيّد هذا المعنى .

الثّانية: أنّ الله وعد العامل المخلص الممتلئ أمره بجزاء عمله إمّا في الدّنيا وإمّا في الآخرة، فمن أراد الدّنيا وفيه في الدّنيا ولا أجر له في الآخرة .

الثّالثة: أنّ الله توعّد من أراد بعمله الدّنيا بالنّار يوم القيامة، وهذا مشعر بأنّ ما فعله أمر محرّم يستحقّ عليه العقوبة .

الرّابعة: أنّ الرِّياء أمر مذموم من المسلم والكافر وهو محبط لثواب الدّنيا والآخرة، فالكافر إذا عمل العمل لله فهذا يُجازى عليه في الدّنيا لأنّه فاقد شرط توفية الثّواب في الآخرة، وأمّا إذا عمل رياء فلا شيء له، لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ

(١) حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم ص(٢٧٠ - ٢٧١) يتصرّف يسير .

وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٢٦٤﴾.

وعليه نقول إن الآية نزلت في الكفار من أهل الشرك وأهل الكتاب، فإن أهل الشرك كانوا يتقربون بالأعمال إلى الله، وكذلك أهل الكتاب، لكن أهل الشرك غالب أعمالهم الأعمال متعدية النفع كالإنفاق والبرّ ونصرة المظلوم، وقد يحجّون لله أيضاً .

وأما اليهود والنصارى فعندهم كثير من العبادات التي في شرعهم يفعلونها لله كالصلاة والصوم إضافة إلى الأعمال المتعدية كالإنفاق مثلاً، لكنها لا تقبل لفقدائها شرط الصحة وهو الإيمان .

وكلا الفريقين إذا كان مخلصاً — وهذا قليل فيهم — لا تنفعه في الآخرة وإنما يجازى عليها في الدنيا حتى لا يبقى له في الآخرة نصيب إلا النار .

وكذلك إذا أراحوا بها أجر الدنيا من الله أيضاً أعطاهم الله منها ووسع عليهم وكان ذلك نصيبهم من أعمالهم .

وأما إذا عملوها لكسب الدنيا من المخلوق، كطلب الثناء والمدح، وكمن يهدي الهدية أو الصدقة يرجو العوض من المخلوق، وكمن ينفق على الخادم يريد حسن خدمته، وكمن يكفل يتيماً يريد اتخاذه ولداً، وكمن يصوم ابتغاء جائزة في سبق ونحو ذلك فهنا لأجر لهم البتة من الله، لأن الحديث صحّ أنّ من ابتغى الأجر من المخلوق وكله الله إليه .

وإذا ثبت هذا في حق الكفار، فلا شك أنّ المسلمين يتناولهم النص بحسب قرب العامل من صفات الكفار وإن كان ليس بكافر مثلهم، ومن

المعلوم من طريقة السلف أنهم يستدلّون بالنصوص الواردة في حق الكفار فيمن شابههم من المؤمنين.

وأما أقوال أهل التفسير فليس بينها تضادّ والله الحمد: أمّا من حملها على أهل الشرك واليهود فظاهر، وأمّا من حملها على أهل الرياء فهو جزء منها ولا شكّ أن أولى ما يدخل في الآية هو الرياء ولذلك استدّل به أبو هريرة في تفسير الآية، ويكون المراد بتعجيل الجزاء في الدنيا هو حصول غرض العامل من المدح والثناء والشهرة، وأمّا ابن عباس فمراده التماس الدنيا من المخلوق وهذا لا شكّ في بطلان عمله واستحقاقه للعذاب .

٣ . قوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، قال ابن جرير: «من كان يريد بعمله الدنيا ولم يرد الله به في ثواب الله لأهل الأعمال التي أرادوه بها في الدنيا حظ» ثم ساق بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من كان إنّما يعمل للدنيا نؤته منها»، وإلى ابن زيد^(١) قال: «من أراد الدنيا وعملها آتيناها منها، ولم نجعل له في الآخرة من نصيب.. من عمل للآخرة أعطاه الله، ومن عمل للدنيا أعطاه الله»^(٢).

٤ . قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، قال ابن جرير: «يعني بذلك جلّ شأؤه: ومن

(١) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم القرشي العدوي المدني مولى عمر بن الخطاب، قال أبو حاتم: «ليس بقوي في الحديث كان في نفسه صالحاً وفي الحديث وإهايا»، لكنّه إمام في التفسير أخذ معاني القرآن وروى عن والده زيد بن أسلم الإمام الكبير، توفي عبد الرحمن سنة (١٨٢) هـ انظر تهذيب الكمال.
(٢) تفسير الطبري (١١/ ١٤٠) .

يرد منكم أيها المؤمنون بعمله جزاءً منه بعض أعراض الدنيا دون ما عند الله من الكرامة لمن ابتغى بعمله ما عنده نعطه منها يعني من الدنيا ثم لا نصيب له في كرامة الله التي أعدها لمن أطاعه وطلب ما عنده في الآخرة»^(١).

وقال ابن الجوزي: «أي من قصد بعمله الدنيا أعطي منها قليلاً كان أو كثيراً... وقال مقاتل: عني بالآية: من ثبت يوم أحد ومن طلب الغنيمة»^(٢).

٥ . قوله تعالى ﴿فَمِنَ النَّكَاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، قال ابن جرير: «لا تكونوا كمن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة فكانت أعمالهم للدنيا وزينتها فلا يسألون ربهم إلا متاعها ولا حظ لهم في ثواب الله ولا نصيب لهم في جناته وكريم ما أعد لأولياؤه» ثم ساق بسنده عن أبي بكر ابن عيَّاش^(٣) قال: كان أهل الجاهلية يقفون — يعني بعد قضاء مناسكهم — فيقولون: اللهم ارزقنا إيلاً، اللهم ارزقنا غنماً، وعن مجاهد قال: «نصراً ورزقاً ولا يسألون لآخرتهم شيئاً»، وعن قتادة قوله: «هذا عبد نوى الدنيا لها عمل ولها نصب»^(٤).

ففي هذه الآية بيان لما قلنا سابقاً إن أهل الجاهلية كانوا — أحياناً — يعملون الصالحات خالصة لله ويبتغون منه الدنيا وفيهم نزلت تلك الآيات، وأمّا العمل من أجل الدنيا التي هي في يد المخلوق فإنه قد يصل إلى الشرك الأكبر كما سيأتي .

(١) تفسير ابن جرير بتصريف يسير (٣/ ٤٥٩-٤٦٠) .

(٢) زاد المسير (١/ ٤٧٠) .

(٣) أبو بكر بن عيَّاش بن سالم الأسدي الكوفي الحنط: بالنون، المقرئ، اختلف في اسمه ، والصحيح أن اسمه كنيته، قال عثمان بن سعيد: ليس بذاك في الحديث، وهو من أهل الصدق، والأمانة، توفي سنة (١٩٢) هـ انظر تهذيب الكمال .

(٤) تفسير الطبري (٢/ ٣١٠ - ٣١١) .

فهؤلاء المشركون يعطيهم الله ما طلبوا من الدنيا بأعمالهم ومالهم في الآخرة من خلاق لأنهم أصلاً كفار مستحقون النار لكفرهم، وأما المسلم فإنه إن عمل للدنيا مثلهم فليس له أجر، ويدخل الجنة بتوحيده وأعماله الأخرى التي عملها لله يبتغي ما عنده .

٦ . قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٨]، قال مجاهد رحمه الله: هو مثل قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ [هود: ١٥-١٦]، وقال ابن زيد: «هؤلاء هم أهل الكفر»^(١).

وتقدم أن الآية وإن كانت في أهل الكفر، فإن المؤمن إذا عمل عملهم ناله مثل جزائهم بحسب ما خالط نيته من ذلك .

٧ . قوله تعالى: ﴿وَمَا ءَاتِيَتْهُمْ مِنْ رَبِّ الْيَتِيمَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيْبُا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتِيَتْهُمْ مِنْ ذَكْوَرٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، وهذه الآية تحتاج إلى تأمل ففيها من الفوائد المهمة ما يبين الآيات السابقة بياناً شافياً .

وقد جاء في تفسير هذه الآية أن المراد بها ما يعطيه الرجل الرجل ينكثر به ليثاب عليها من الآخر فلا أجر فيه، وقيل: هو الرجل يعطي ماله للرجل ليعينه بنفسه ويخدمه ويعود عليه نفعه لا لطلب أجر من الله .

وقيل: هو الرجل يعطي غيره مالا ليكثر مال الآخر لا لوجه الله .

(١) انظر تفسير الطبري (٦/ ٥٣٣-٥٣٤) .

قال ابن جرير رحمه الله: «وما أعطيتم أيها الناس بعضكم بعضاً من عطية لتزداد في أموال الناس برجع ثوابها إليه ممن أعطاه ذلك فلا يربو عند الله لأن صاحبه لم يعطه من أعطاه مبتغياً به وجهه» وساق بسنده عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم (١).

وقال القرطبي: «قال عكرمة (٢): الربا ربوان، ربا حلال وربا حرام، فأما الربا الحلال فهو الربا يهدي يُلتمس ما هو أفضل منه، وعن الضحّاك في هذه الآية: هو الربا الحلال الذي يهدي ليُثاب ما هو أفضل منه لا له ولا عليه، ليس فيه أجر وليس عليه إثم، وكذلك قال ابن عباس: يريد هدية الرجل الشيء يرجو أن يُثاب أفضل منه فذلك الذي لا يربو عند الله ولا يُؤجر صاحبه ولكن لا إثم عليه» ثم قال: «الهبّة ثلاثة أقسام: أحدها أن يريد بها وجه الله ويبتغي الثواب عليها منه، والثاني: أن يريد بها وجوه الناس رياء ليحمدوه عليها ويثبوا عليه من أجلها، والثالث: أن يريد بها الثواب من الموهوب له، فأما إذا أراد بهبته الثواب من الله فله ذلك من عند الله بفضله ورحمته، وأما إذا أراد بهبته وجوه الناس رياء فلا منفعة له في هبته لا ثواب في الدنيا ولا أجر له في الآخرة، وأما من أراد بهبته الثواب من الموهوب له فله ما أراد بهبته» (٣).

وهذا الكلام النفيس نستفيد منه الآتي:

أولاً: التفريق بين الرّياء وغيره من أغراض الدّنيا، بعكس قول من اعتقد أنهما سواء وأنّ إرادة ثناء الناس كإرادة المنفعة الدنيويّة .

(١) تفسير الطبري (١٠/١٨٧) .

(٢) العلامة الحافظ المفسر أبو عبدالله القرشي مولاهم المنني البربري الأصل ، وهو مولى ابن عباس رضي الله عنه ، وعنه أخذ التفسير قال قتادة : كان عكرمة أعلم التابعين بسيرة النبي ﷺ ، توفي سنة (١٠٧هـ) ، السير (١٢/٥) .

(٣) بحنف واختصار من تفسير القرطبي (١٤/٢٥-٢٦) .

ثانياً: أن إرادة الإنسان بعمله الصالح المصلحة الدنيوية ليس موجباً للإثم مطلقاً، فأنت ترى تصريح ابن عباس ومن وافقه على أن إنفاق الرجل في وجوه البر يبتغي الدنيا لا بأس فيه ولا إثم، فكيف من طلب المنفعة الدنيوية من الله تعالى، لاشك أن هذه مرتبة أعلى وقد يحصل بها ثواب وأجر أحياناً .

والذي يترشح لنا من خلال النصوص المتقدمة، أن العمل إذا كان أصله خالصاً لله ويُراد به ما عند الله تعالى لكن خالطه طلب عرض من الدنيا من الله أيضاً فإن أجره الأخروي لا يبطل لكنّه ينقص، وإذا أراد بعمله الدنيا خالصة أعطاه الله ما أراد و لا نصيب له على عمله ذلك في الآخرة.

فالعبد قد يحافظ على الصلاة يريد كرامة الله في الدار الآخرة لأهل الصلاة، لكن يخالط ذلك رغبته فيما وعد الله أهل الصلاة من ضمان الرزق والحفظ في الدنيا من الشرور وغير ذلك من المصالح الدنيوية التي تكفل الله بها لأهل الصلاة .

وقد يفعل ذلك رغبة في الأجر الدنيوي فقط .

كما أنه قد يصوم لله يريد ما عند الله لكن يخالط ذلك رغبته في ما في الصوم من حفظ الصحة، وقد يفعله رغبة في الأخيرة فقط .

ويزكي أمواله رغبة في الأجر وفيما في إخراج الزكاة من حفظ للمال وتتميته، وقد لا يريد به سوى حفظ ماله وأهله .

كما أنه يحج رغبة في الأجر وفي الاتجار، وقد لا يريد إلا الأخيرة، ويجاهد رغبة في الأجر الأخروي وطمعاً في الغنيمة وقد تصفو نيته للغنيمة،

ونحو ذلك ففي هذه الصّور جميعاً ينقص أجر العامل الأخروي بحسب نيّته،
ويزول بالكلية إذا صفت نيّته للدنيا .

وشرح ذلك: أنّ الله تعالى اشترط لصحة العمل وقبوله أن يكون خالصاً لله تعالى فعند ذلك يرضى عليه الله ويرضى به ويترتب عليه الأجر والثواب، لكنّ هذا الأجر والثواب نوعان: ثواب في الدنيا وثواب في الآخرة، فمن أراد بعمله ثواب الدنيا أعطاه الله ما أراد، ومن أراد ثواب الآخرة أعطاه الله ثواب الدنيا والآخرة لا ينقص أجر الآخرة شيئاً، ومن أراد بعمله ثواب الدنيا والآخرة أعطاه الله ثواب الدنيا ونقص من ثواب الآخرة بحسبه، لأنّ إرادة الإنسان بعمله ما يترتب على العمل من المصالح الدنيوية التي وعد بها الله ورسوله صلى الله عليه وسلّم تنقص أجر العمل الأخروي إن كان مراداً . وبذلك نعرف أنّ العمل إذا عمله العامل مخلصاً لله محتسباً الثواب من الله، لكنّه خلط بذلك نيّة الأجر الدنيوي أنّه لا يبطل بل ينقصه بلا إثم إن كان العمل نافلة .

أمّا إن كان العمل واجباً فلا يجوز أن يُراد به إلاّ ثواب الآخرة، لأنّه شرط في براءة الذمّة في الآخرة فإذا عجل شيء منه في الدنيا لم تبرأ ذمّته في الآخرة، ولم يبق له ما ينجيه من العذاب، كما فهم من كلام ابن القيم رحمه الله .

فالصلاة المكتوبة والصوم المفروض والزكاة المفروضة والحج الواجب عبادات محضة لا يجوز أن يُراد بها إلاّ الدار الآخرة فقط لا غير وأن تكون خالصة لوجه الله تعالى .

وأما النوافل من تلك العبادات فيجوز أن يتقرّب بها العبد إلى الله طلباً لغرض دنيوي خالص ولعاملها ما أراد لكن لا إثم عليه، كمن يقع في ضنك فيصلي رجاء أن يكشف الله عنه ما أصابه .

وكمن تصيبه فاقة فيحجّ نفلًا رجاء أن يكشف الله فقره .

وكمن يصيبه مرض فيصوم لله رجاء أن يمنّ الله عليه بالعافية .

لكن مع ذلك لا ينبغي أن يكون دينه ونيّته الأصليّة دائماً في كلّ نافلة هي الدّنيا، لأنّ الأصل أنّ القصد بالعمل الصّالح هو الأجر الأخروي، وإنّما يصحّ منه ذلك أحياناً، خصوصاً وأنّ الله وعد من أراد أجر الآخرة خالصاً بأجري الدّنيا والآخرة .

كما أنّ من كان دينه الدّنيا وهي همّته أو شكّ أن يكون ذلك حتّى في الأعمال الواجبة فيوفيه الله إياها في الدّنيا ولا يكون له في الآخرة ما يفقده نفسه به من العذاب، ويكون بذلك مشابهاً للكفّار في نيّاتهم ولا يسلم من صليان النّار .

ولهذا كان أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه متباعدًا عن الدّنيا وإذا ليم قال: أخشى أن نكون ممّن عجلت لهم طيّباتهم في الدّنيا، يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَبْتُمْ طَيِّبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وهذا من كمال إخلاصه وعلمه رضي الله عنه وأرضاه .

وقد صحّ عنه صلّى الله عليه وسلّم قوله: «من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله، وأتته الدّنيا وهي راغمة، ومن كانت الدّنيا همّه جعل الله فقره بين عينيه وفرّق شمله ولم يأتّه من الدّنيا إلّا ما قدّر له»^(١) وهذا يتحقّق فيمن كان ذلك دينه ولا شكّ في ذلك .

(١) أخرجه الترمذي (ح ٢٤٦٥) وصحّحه الشيخ الألباني في الصحيحة (ح ٩٤٩).

وإنما حديثنا فيما تقدّم فيمن يعمل العمل المعين طلباً لعرض من الدنيا من الله وحده، وأمّا أن يكون كلّ عمله كذلك ففيه هذا الوعيد الشديد من النبيّ صلى الله عليه وسلّم، وهذا متحقّق فيمن كانت همّته الدنيا فقط فلا يرجو جنّة ولا يخاف ناراً، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «بقي أن يُقال: إذا عمل الرجل الصلّاة والزكاة والصّوم والحج ابتغاء وجه الله وطالباً ثواب الآخرة، ثمّ بعد ذلك عمل أعمالاً صالحة قاصداً بها الدنيا مثل أن يحجّ فرضه ثمّ يحجّ بعده قاصداً الدنيا كما هو واقع، فهو لما غلب عليه منهما، وقد قال بعضهم: القرآن كثيراً ما يذكر أهل الجنّة الخالص، وأهل النار الخالص، ويسكت عن صاحب الشائبين»^(١)، معنى ذلك أن العبد إذا غلبت عليه إرادة الدنيا ناله نصيب من وعيد أهل النار وإن غلبت عليه إرادة الآخرة ناله وعد أهل الجنّة، وهذا يؤكّد ما ذكرناه من جواز قصد الدنيا من الله ببعض الأعمال الصالحة دون أن يغلب عليه ذلك، ويدلّ على ذلك من السنّة ما يلي:

١. ما ثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال: «من أحبّ أن يُبسّط له في رزقه ويُنسأ له في أجله فليصل رحمه»^(٢)، وصلة الأرحام أمر مرغّب فيه شرعاً ومع ذلك حتّى النبيّ صلى الله عليه وسلّم عليه طلباً لطول العمر وسعة الرزق .

٢. وكذلك قوله صلى الله عليه وسلّم: «تابعوا بين الحجّ والعمرة فإنّهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد»^(٣) .

٣. ومنه قوله: «داووا مرضاكم بالصدقة»^(٤) .

(١) حاشية كتاب التوحيد ص (٢٧١) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٦٧) ومسلم (٢٥٥٧) عن أنس رضي الله عنه .

(٣) أخرجه أحمد (٣٦٦٩) والترمذي (٨١٠) والنسائي (٣٦١٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وله شواهد ، قال الترمذي: «حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح» .

(٤) رواه أبو الشيخ وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٥٨) .

٤. ومنه حديث الضَّرِيرِ الَّذِي أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ادع الله أن يعافيني فقال له النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن شئت دعوت لك وإن شئت أخرت ذلك فهو خير، فقال: ادعه، فأمره النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتوضأ فيحسن الوضوء فيصلي ركعتين ويدعو، فلما فعل الرَّجُلُ برأ وأصبح مبصراً^(١).

وأنت ترى أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره بتقديم ركعتين بين يدي دعائه، وما نهز الرَّجُلُ إلى هاتين الركعتين إلا لطلب كشف الضر عنه فهو يطلب بها حاجة دنيوية فليس في ذلك من بأس، لأن صلاة يُراد بها وجه الله مع حسن وضوء وخشوع لا شك أنها تجلب رضا الله عن المصلي فتكون مدعاة لاستجابة دعائه .

وموضع الدلالة أنه لولا جواز قصد هذه الأمور الدنيوية بالعمل ما رتبها الشرع على تلك الأعمال وأشار إليها النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ومع ذلك فقد يكون للعبد خيري الدنيا والآخرة إذا أحسن النية كما في النصوص السابقة، فلا يمنع ذلك أن يطلب بعمله مع الدنيا الآخرة، وهذا هو حال المؤمن، وأما من طلب بعمله الدنيا فقط فإنه وإن سلم من الإثم فلا أجر له .

٥. ومما يدل على أن طلب الدنيا من الله مع الآخرة ينقص أجر العمل: ما ثبت عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إِنَّ الْغَزَاةَ إِذَا غَنَمُوا تَعَجَّلُوا ثَلَاثِي أَجْرِهِمْ، فَإِنْ لَمْ يَغْنَمُوا تَمَّ لَهُمْ أَجْرُهُمْ»^(٢)، وهذا فيمن

(١) أخرجه أحمد (ح ١٧٢٧٩) والترمذي (ح ٣٥٧٨) والنسائي (ح ١٠٤٩٤) وابن ماجه (ح ١٣٨٥) عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه، قال الترمذي: «حسن صحيح» .

(٢) أخرجه مسلم (ح ١٩٠٦) عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما .

أصل قصده الآخرة لكن أراد من الله شيئاً من الغنيمة فهذا قد يُتم الله له الأجر فلا يغنم وقد يعجل له بعض مراده وينقص بذلك أجره في الآخرة، وهذا هو أعدل الأقوال في الحديث، إذ الغازي في سبيل الله على أحوال:

فقد يكون قاصداً الدار الآخرة ومحصاً لها النية فهذا يتم له الأجر غنم أو لم يغنم، لأن الأعمال بالنيات .

وقد يقصد بجهاده الآخرة شيئاً من الغنيمة فهذا قصد أمراً مباحاً بدليل حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: بعث إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: « خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني » فأتيته وهو يتوضأ فصعد في النظر ثم طأطأه فقال: «إني أريد أن أبعتك على جيش فيسلمك الله ويغنمك وأرغب لك من المال رغبة صالحة »، قال قلت: « يا رسول الله ما أسلمت من أجل المال ولكنني أسلمت رغبة في الإسلام وأن أكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » فقال: « يا عمرو، نعم المال الصالح للرجل الصالح »^(١).

فلو كانت نية الغنيمة مما يوجب الإثم ما ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في سياق حثه لعمرو، وهذا يدعم القول بأن الغزاة الذين يتعجلوا ثلثي أجرهم هم من كانت نية الغنيمة حاضرة في قلوبهم، والتعبير بـ «تعجلوا» يشير إلى أثر نيتهم وقصدهم، فلم يقل: «عجل» .

وأما من قصد بجهاده الرياء فجهاده باطل بل هو آثم، أو قصد وجه الله والرياء، كما جاء في حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: رأيت رجلاً غزاً يلتمس الأجر والذكر، ماله

(١) أخرجه أحمد (ح ١٧٧٩٨) .

؟ قال: لا شيء له، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصاً وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهَهُ»^(١).

وأما من قصد بجهاده الدنيا لكن ليس من الله كالتاجر والمكاري والخادم فقال أحمد: أجرهم على قدر ما يخلص من نيّتهم، وقال مجاهد في حجّ الجمال والأجير وحجّ التاجر: هو تمام لا ينقص من أجورهم شيء^(٢). وهناك فرق بالنسبة للجهاد بين نيّة الغنيمة وبين نيّة التجارة، لأنّ الغنيمة مترتبة على نفس الجهاد فلا غنيمة بلا جهاد، لذلك لا ينقص أجر المجاهد إذا لم يغنم، أما التاجر فإنّ تجارته لا تتوقّف على الجهاد فذلك تؤثّر نيّته في عمله سواء ربح أو لم يربح، ومثل التجارة النقود التي يجريها السلطان على أهل الغزو، وأما الغنيمة فرزق يرزقه الله للمجاهد فقد يغنم أو لا، فإن كانت نيّته الأجر الأخروي تمّ له أجره وإن غنم، وإن خالطها شيء من طلب الغنيمة فهذا الذي يصحّ فيه معنى الحديث، خصوصاً مع قوله «تعجلوا» فإنّه يدلّ على القصد القلبي، بدليل أنّ عمله لا يُعتبر أمراً محرماً لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رَمْحِي»^(٣) فالمجاهد لا يأثم بطلب الغنيمة مع طلب رضا الله بجهاده إذ هو رزقه، خصوصاً إذا كان لا راتب له ولا رزق من سلطان أو غيره، فيكون الغزو مصدر رزق للغزاة، ومن هذه الحيثيّة يُفهم النصّ.

ولا يرد على هذا أنّ الله تعالى وصف الصّحابة الذين تركوا مواقعهم في غزوة أحد لجمع الغنائم بأنهم يريدون الدنيا، وذلك في قوله تعالى: ﴿

(١) تقدّم ص (١٠).

(٢) انظر جامع العلوم والحكم (١/ ٨٢).

(٣) أخرجه أحمد (٥٠٩٣ و ٥٠٩٤ و ٥١٣٤) وعلقه البخاري بصيغة التمريض في الجهاد باب ما قيل في الرماح، وأشار الحافظ إلى حسنه، وصحّحه الشيخ الألباني رحمه الله في الإرواء (ح ١٢٦٩).

مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴿[آل عمران: ١٥٢]، قال ابن مسعود: ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى كان يوم أحد ونزلت هذه الآية، لأن هؤلاء صحابة كرام ليس فيهم منافق، وإرادتهم هذه إرادة عارضة للدنيا مع أن أصل خروجهم لله وجهادهم لله، ولذلك قال ابن القيم: «والذين أريدوا في هذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه، وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز والإقبال على كسب الغنائم بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون، وإرادة هؤلاء لون»^(١).

وقد كان السلف يعون هذه الحقيقة، فورد عن بعضهم العمل الصالح لأجل شيء من الدنيا فعن هشام بن حسان قال: قال سعيد بن جبير: «إني لأزيد في صلاتي من أجل ابني هذا»، قال هشام: «رجاء أن يحفظ فيه»^(٢).

ويشبه هذه المسألة الدعاء: فقد صح أن الدعاء إذا قبله الله تعالى: إما أن يعجل لصاحبه حاجته في الدنيا وإما أن يتخير له في الآخرة، مع أن الداعي كل مقصده هو الدنيا مثلاً، ومع ذلك لا نقول إن أجر من أخره الله له في الآخرة كمن عجلت له مسألته في الدنيا.

وبما تقدّم نعرف أن من عمل العمل خالصاً لله ويريد الأجر من الأخروي مع إرادة بعض المصالح الدنيوية نقص أجره، وإن كانت نيته الدنيا فقط فلا أجر له في الآخرة على التفصيل المتقدم، والله تعالى أعلم بالصواب.

(١) عدة الصائرين ص (٢٠٨).

(٢) حلية الأولياء (٢٧٩/٤).

مسألة : ترك المنهيات خوفاً من العقاب الدنيوي

ويدخل فيما تقدّم ترك المنهيات خوفاً من العقاب الدنيوي، فإن الأصل في المسلم هو خوف عقاب الله في الآخرة وعذابه الذي توعد به أهل المعصية وهو النار كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

لكن لا يغيب عنا أنه جاء في القرآن والسنة وعيد على كثير من المعاصي بعقوبات دنيوية ومنها التالي:

١. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩]، والحرب فسرها كثير من المفسرين بالقتل^(١).

٢. وقوله: ﴿يَمْحَقِ اللَّهُ الرِّبَا وَيَرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

٣. ومنه قوله تعالى بعد قصة أصحاب الجنة وما عاقبهم الله على بخلهم بإتلاف جنتهم: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣].

٤. ومنه ما حكاه الله عن صاحب الجنة في سورة الكهف: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ ۖ فَاصْبَحَ يَقُودُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَتَقَىٰ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢]، ولا شك أن هذا العذاب كان بسبب شركه وجده نعمة ربه، وفيه تحذير لمن يفعل فعله بعذاب الدنيا مثل أصحاب الجنة سواء .

(١) تفسير الطبري (١٠٨/٣).

٥. ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧].
٦. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»^(١).
- قال الحافظ: «ظاهره أنّ الإِتلاف في الدنْيَا»^(٢)، فمن حرص على أداء الدين خوفاً من وعيد النبي صلى الله عليه وسلم فلا وزر عليه ولا حرج.
٧. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «ما أحد أكثر من الربا إلّا كان عاقبة أمره إلى قلة»^(٣).
٨. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم ؟ لينتهن عن ذلك أو لتُخطفن أبصارهم»^(٤).
٩. ومنه قوله: «ما من ذنب أجدر أن يُعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يُدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرّحم»^(٥).
١٠. ومنه قوله: «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي هم أعزّ وأكثر ممّن يعملهم ثمّ لم يغيّروه إلّا عمّهم الله تعالى منه بعقاب»^(٦).
١١. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار أو يجعل الله صورته صورة حمار»^(٧).

(١) أخرجه البخاري (ح ٢٣٨٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الفتح ٥ / ٥٤ .

(٣) أخرجه أحمد (ح ٣٧٥٤) وابن ماجه (ح ٢٢٧٩) وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب (ح ١٨٦٣) .

(٤) أخرجه البخاري (ح ٧٥٠) ومسلم (ح ٤٢٩) عن أنس رضي الله عنه .

(٥) أخرجه أحمد (ح ٢٠٤١) وأبو داود (ح ٤٩٠٢) والترمذي (ح ٢٥١١) وابن ماجه (ح ٤٢١١) عن أبي بكره رضي الله عنه وصححه الشيخ الألباني (ح ٩١٨) .

(٦) أخرجه أحمد (ح ١٩٢٥٠) ، وأبو داود (ح ٤٣٣٩) وابن ماجه (ح ٤٠٠٩) عن جرير وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب (ح ٢٣١٦) .

(٧) أخرجه البخاري (ح ٦٩١) ومسلم (ح ٤٢٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

١٢. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالستين وشدّة المؤنة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدوهم من غيرهم وما لم تحكم أممهم بكتاب الله عز وجلّ ويحترّوا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»^(١).

١٣. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «من تتبّع عورة أخيه المسلم تتبّع الله عورته ومن تتبّع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله»^(٢).

ففي كلّ هذه النصوص التي فيها وعيد بالعقوبة الدنيويّة على المعصية لا يجوز أن يقال إنّ من انتهى عنها خوف وعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم والعقوبة الدنيويّة أنّه لا أجر له أو أنّه آثم لأنّه خاف عقوبة الدنّيا، لأنّ ذلك لو لم يكن مقصوداً من النصوص لما ذكره النّبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو على العموم خوف من الله لأنّ تلك العقوبات من الله سبحانه وتعالى فهو في الحقيقة خوف من الله تعالى سواء كان خوف عقوبة الدنّيا أو الآخرة .

لكنّ ذلك بلا شك لا يرقى إلى خوف الآخرة وعذابها لأنّ عذابها أكبر وأعظم بل لا مقارنة أصلاً، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾^(٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ

(١) أخرجه ابن ماجه (ح ٤٠١٩) عن ابن عمر، وصححه الألباني في الصحيحه (ح ١٠٦).
(٢) أخرجه الترمذي (ح ٢٠٣٢) عن ابن عمر وصححه الألباني في صحيح الترغيب (ح ٢٣٣٩).

النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٢﴾ [هود: ١٠٢-١٠٣] وَقَالَ: ﴿كَذَلِكَ الْمَنَابُ وَالْمَنَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣].

ويأتي فيه ما قلناه سابقاً: إنَّ الخوف فقط من عقوبة الله الدنيوية ليس من فعل المؤمن، بل ذلك له دلالة على ضعف اليقين بما عند الله من العذاب، وهو بفعل اليهود أشبه منه بفعل الموقنين .

أما الانتهاء أحياناً عن بعض المعاصي خوفاً من عذاب الله الدنيوي، مع وجود الخوف من العذاب الأخروي في الأصل، فهذا لا يأنم صاحبه بل قد يؤجر، بتصديقه للوعيد الدنيوي .

والنصوص تربّي في العبد الخوف من عذاب الله في الدنيا والآخرة، لكن فرق بينهما: فعذاب الآخرة إذا استقرّ في قلب العبد حسن إيمانه وكان أدعى لثبات القلب على الإيمان، وأما إذا كان ديدن العبد خوف الدنيا فهو معرض للوقوع في مكر الله واستدراجه بأن يعمل المعصية فيحلم الله عنه ولا يعاقبه في الدنيا فإذا رأى صبر الله عنه تمادى في غيّه ومعصيته حتى لا ينفعه خوف عقوبة الدنيا ولا يحجزه عن فعل المعصية، وأما من كان همه عذاب الآخرة فلا يضره حلم الله عنه لأنه يعلم أنّ العذاب هو عذاب الآخرة وأنّ الله تعالى يمكر بمن تهاون في أوامر الله وتجراً على معاصيه فيكون خوف الآخرة حاجزاً له من سخط الله وغضبه والفرق واضح.

الفصل الثالث: العمل بقصد الحصول على الدنيا من المخلوق

كمن يصلي للحصول على قرض لا يُعطى إلا لأهل الصلاة .
وكمن يحجّ فقط لدخول البلاد المقدّسة، وكمن يتعلّم العلم الشرعي للحصول على الوظيفة .
وكمن يزكي خوفاً من بطش السلطان، وكمن يبني مسجداً ينفق رغبة في الحصول على تسهيلات لتجارته ونحو ذلك، فهذه الصّور كلّها مذمومة ويأثم صاحبها، والنصوص الدّالة على ذلك كثيرة:

١. فمنها قوله صلى الله عليه وسلّم: «يقول الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشّرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشريكه»^(١).

٢. ومنها قوله صلى الله عليه وسلّم: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله عزّوجلّ فليطلب ثوابه من عند غير الله عزّوجلّ، فإنّ الله أغنى الشّركاء عن الشّرك»^(٢).

٣. ومنها قوله صلى الله عليه وسلّم: «من تعلّم علماً ممّا يُبتغى به وجه الله لا يتعلّمه إلا ليصيب به عرضاً من الدّنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»^(٣).

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٩٨٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) أخرجه أحمد (ح ١٥٨٧٦) والترمذي (ح ٣١٥٤) وابن ماجه (ح ٤٢٠٣) عن ابن أبي فضالة رضي الله عنه وحسنه الترمذي ووافقه الشيخ الألباني رحمه الله .
(٣) أخرجه أحمد (ح ٨٤٣٨) وأبو داود (ح ٣٦٦٤) وابن ماجه (ح ٢٥٢) وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب (ح ١٠٥).

فهذه النصوص تدلّ على أنّ من طلب بعمله عرضاً من الدنّيا من غير الله فلا أجر له وليطلب أجره ممّن قصد به عمله، ولا يدخل فيها من أراد الدنّيا لكن من الله، لأنّه لا يكون طالباً للثّواب من عند غير الله وإنّما من الله، وبينهما فرق كبير، فإنّ العبد مأمور بطلب كلّ شيء من الله حتّى أحقر متاع الدنّيا كما قالت عائشة رضي الله عنها: «سلوا الله كلّ شيء حتّى الشّسع فإنّ الله إن لم ييسره لم ييسره»^(١).

وأما طلب شيء من ذلك من المخلوق وقرنه بعمل صالح ممّا يُبتغى به وجه الله فهذا في الحقيقة يطلب ثوابه من غير الله، كمن يصلّي رغبة في الحصول على منصب أو يتعلّم من أجل ذلك، فليطلبه منهم وليس له عند الله أجر بل هو آثم .

ثمّ العمل الذي يفعله نوعان:

العبادة المحضة : كالصّلاة والحج والصوم والزكاة ونحوها ،
فالنصوص تدلّ على حبوط العمل والإثم .

والثّاني: أعمال متعدّية كالنفقة والصّلة والقتال ونحو هذا ممّا يختلط فيه التّعبد بالعمل الدنيوي المباح، فهذا لا أجر له فيه، والله لا يقبل من العمل إلّا ما كان خالصاً له، أي لا يثيب عليه، لكن الإثم غير لازم له .

مسألة : الرياء شرك أصغر يحبط العمل

أسوا ما يعمل العامل لأجله من الدنّيا هو الرياء، وهو العمل لكسب ثناء النّاس ومدحهم، وهو من أخطر الأمراض النّفسيّة التي إذا طغت على العبد خسر دنياه وآخرفته، وذهبت أعماله وأوقاته وأمواله سدى لا أجر له بل هي عليه خسارة ووبال .

(١) أخرجه أبو يعلى في المسند، وانظر كلام الألباني عليه في الضعيفة (ح ١٣٦٣) .

وقد جاء في الرِّياء من الآيات والأحاديث ما يقطع المرء بخطورته وعظم أمره، حتَّى قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدَّجَال ؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الشَّرك الخفي، يقوم الرَّجُل فيصلي فيزيِّن صلاته لما يرى من نظر رجل»^(١)، فانظر كيف خافه النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أُمَّته أشدَّ من المسيح الدَّجَال الَّذي مامن نبيٍّ إلَّا أنذر أُمَّته وحذَّره منه .

فمن النصوص قوله تعالى: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، قال ابن جرير: «وإنما يكون جاعلاً له شريكاً بعبادته إذا رأى بعمله الَّذي ظاهره أنَّه لله وهو يريد به غيره»^(٢).

ومنه قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من سمع سمع الله به ومن يراني يراني الله به»^(٣)، ومعناه من عمل عملاً على غير إخلاص وإنما يريد أن يراه النَّاس ويسمعه يجازيه على ذلك بأن يشهره ويفضحه فيبدو عليه ما كان يسره من ذلك .

ومنه قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ الله تبارك وتعالى يقول: إنِّي أغنى الشُّركاء عن الشُّريك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء هو للَّذي عمله»^(٤).

ومنه الحديث المشهور الَّذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنَّ أولَّ من يحاسب يوم القيامة منفقٌ ومجاهدٌ وقارئٌ عملوا أعمالهم رياءً وسمعةً، فيقال لكلِّ واحد منهم: إنَّما فعلت ليقال كذا وقد قيل ويؤمر به إلى النَّار^(٥)،

(١) أخرجه ابن ماجه (ح ٤٢٠٤) وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب (ح ٣٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) تفسير الطبري (٨/ ٢٩٩) .

(٣) أخرجه البخاري (ح ٦٤٩٤) عن جنبد بن عبد الله البجلي رضي الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم (ح ٢٩٨٥) عن أبي هريرة .

(٥) أخرجه مسلم (ح ١٩٠٥) .

وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا حدث حديث غشي عليه وكذلك معاوية رضي الله عنه .

«ولما كانت النفوس مجبولة على راسية والمنزلة في قلوب الخلق إلا من سلم الله، كان هذا أخوف ما يفتن على الصالحين، لقوة الداعي إلى ذلك، والمعصوم من عصمه الله»^(١).

قال ابن رجب رحمه الله: «والرأس: وهو الذي لا يرد به سوى مرآت المخلوقين للغرض الدنيوي والصلاة والصوم وقد يصدر في الزكاة أو فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا العمل لله ويشاركه الرياء فإن شاركه على بطلانه.

وإن كان أصله لله ثم طرأ عليه فليضره بغير خلاف، وإن استرسل من صحته ورجح الطبري والإمام أحمد أن أصل نيته»^(٢).

والرياء وإن كان من الشرك الأكبر فإنه قد يصل إلى الكفر الأكبر كرياء المنكر وأما إذا عمل العمل فألقى الله عليه فلا شيء فيه مالم تتصرف همته لثناء الناس ومدحهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله أرأيت الرجل يعمل العمل لله يحببه الناس عليه ؟ قال صلى الله عليه وسلم: «تلك عاجل بشرى المؤمن»^(٣).

(١) تيسير العزيز الحميد ص (١١٨) .

(٢) انظر جامع العلوم والحكم (٧٩ - ٨٣) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٤٢) .

الخاتمة :

بعد هذه الجولة السريعة في نصوص الكتاب والسنة المتعلقة بإرادة الدنيا خرجت بهذه النتائج :

- ١- أهمية الإخلاص وعظم منزله عند الله .
 - ٢- خطورة الانحراف في الإرادة فساد القصد بالعمل .
 - ٣- وجوب احتساب الأجر وطلب ما عند الله تعالى من الأجر في الآخرة.
 - ٤- جواز إرادة الثواب العاجل من الله تعالى على بعض النوافل .
 - ٥- الأصل أن نية المؤمن وخوفه ورجاءه منصرف إلى الدار الآخرة وأن الاهتمام بالدنيا رغبة ورهبة ليس من صفات المؤمن ولو كان يطلبها من الله .
 - ٦- أن العمل لأجل الدنيا التي في يد المخلوق نوع من الشرك الأصغر.
 - ٧- أن الرياء محرم وهو من الشرك الأصغر لكنه محبط لما قارنه من العمل .
- وختاماً أوصي نفسي وإخواني بتقوى الله تعالى والجد في تربية النفس على الإخلاص وطلب ما عنده من الكرامة والهرب مما عنده من العقوبة والله أعلم ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أهم المصادر والمراجع :

١. إرواء الغليل للألباني ، ط٢ المكتب الإسلامي .
٢. البدر الطالع للشوكاني ، دار الفكر ، ط١ ، ت : حسين العمري .
٣. تهذيب الكمال ، ط٢ مؤسسة الرسالة ، ت : بشار عواد معروف .
٤. تهذيب اللغة للأزهري .
٥. تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد
٦. جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري : دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤١٢هـ .
٧. جامع الترمذي دار الكتب العلمية ، ترقيم أحمد شاکر .
٨. جامع العلوم والحكم ، ط١ مؤسسة الرسالة ، ت : شعيب الأرناؤوط ورفيقه .
٩. سير أعلام النبلاء للذهبي ، مؤسسة الرسالة ، ط٨ ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ورفقاءه .
١٠. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، دار الكتب العلمية ، ط١٤٠٨هـ .
١١. حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم
١٢. حلية الأولياء لأبي نعيم
١٣. ذيل طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى.
١٤. زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي .
١٥. سلسلة الأحاديث الصحيحة، ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، مكتبة المعارف.

١٦. سلسلة الأحاديث الضعيفة، ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، مكتبة المعارف.
١٧. سنن ابن ماجه ، ط١٣٩٥هـ ، محمد فؤاد عبدالباقي.
١٨. سنن أبي داود ، ط١ دار الحديث ، تعليق : عزت عبيد الدعاس .
١٩. السنن الكبرى للنسائي
٢٠. صحيح البخاري ، مع شرحه فتح الباري لابن حجر ، دار المعرفة ، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي.
٢١. صحيح الترغيب والترهيب للشيخ الألباني
٢٢. صحيح الجامع
٢٣. صحيح مسلم ، دار إحياء التراث ، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي .
٢٤. عدّة الصّابرين وذخيرة الشّاكرين لابن القيم .
٢٥. فتح الباري دار المعرفة ، تعليق الشيخ عبدالعزيز بن باز .
٢٦. الفوائد لابن القيم، ت: بشير عيون، ط٢، مكتبة المؤيد.
٢٧. القاموس المحيط للفيروز آبادي .
٢٨. مدارج السّالكين لابن القيم ، دار الكتب العلمية .
٢٩. المسند للإمام أحمد
٣٠. معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ، دار إحياء التراث العربي .